

في موسم الحج :

أبو نواس يحج !

للشيخ محمد رجب البيوي

—>>><<<—

شغل الحسن بن هانيء أذهان معاصريه ، فقد كانت سيرته ذاتة شائمة يتناولها الطرفاء متقدين معجبين ، ويتناقضها الزهاد لأعين ناقلين ، وهو لا يفتأ يفرم النار ويشعل الوقود بما ينظم من شعر ما جن بتردد صدهاء في كل ناحية ، ويترنم به الحداة في كل ركب . وكثيراً ما يشفع القول بالعمل فيلجأ إلى الديارات الخليفة ويتصدر الأندية الداعمة ، يعب الخمر وينادم المرد ، ويقود الأسراب الطائرة إلى منابع السكر ، حيث تتجاوب الأوتار ، وتدور الكؤوس ، ويترأس أبلّيس الحفل ، فيفتح باب الغواية على مصراعيه ، ويوسوس لكل ماجن بما يبيء الروعة ، ويفضض الخلق الكريم .

وشاعر هذه نشأته وسيرته لا يمكن أن يفكر يوماً من الأيام في الحج ، بل ربما نفر منه ودعا إلى حربه ، حيث لا يعود عليه بفائدة مما يبتغيه . وإذا كانت شعراء الغزل في الدولة الأموية قد وجدوا في هذا الموسم الحافل معرضاً فسيحاً للجمال الفائق ، نفخوا إلى التمتع ببدائمه الفاتنة ، فإن الحسن لا يجد به مآربه المشتهة ، فهو بناغي الرد الحسان وبهم بالخمر الممتعة ؛ أما أسراب الفيد الطائرة حول البيت العتيق فلم تنسكن شباكها الخائنة — بعد — من أسطياده ، فقيم السير إلى مكة ؟ وعلام يتحمل الشاعر في سفره الشاق ؟ بل إنه سئل عن موعد حجه فقال مستهتراً كعادته « إذا فدت لذات بغداد^(١) » وهيهات أن تنضب موارد اللهو في دار السلام !

ولكن الثابت في التاريخ — على رغم ما تقدم — أن أبا نواس قد حج البيت المكرم طواف مع الطائعين ، ولبي مع الثلبين ،

(١) قال أبو نواس

وقائل هل تريد الحج قلت له نعم إذا فدت لذات بغداد

وقد غمره شعور سماوى هيمن على عواطفه فأناطه بتساويح خالدة ، تستمد نغمها الحلو من فيثارة فائنة ، فكيف تسنى ذلك لأبي نواس ؟ وكيف ينبع في الصحراء الوحشة نهر دفاق مليء ؟ سؤال يتطلب رداً مقنعاً . ولعل الإجابة تظهر في تاريخ الرجل ، فقد شاء له حظاه العائر أن يهيم بجارية تفتته وتزدر به ، وترسل قذائفها المحرقة فوق رأسه ، وهو سليب العقل ، طائر الفؤاد ، يسير وراءها أنى سارت ، ويبت خلفها الرسل يستطفون منها قلباً جامعاً ، لا ينبض برحة لملك ، ولا يستشر حناناً لمدنف . ولقد كان هذا عجيباً منه أى عجيب ، فقد اشتهر طيلة حياته بمجانبة الفيد ، فكيف يتورط إذن في هذا الحب الجديد ؟

كانت «جنان» جارية عبد الوهاب الثقفي ساحرة فائنة ، ذات وجه أزهر صبيح ، إذا تأملته تماظمك الإقرار أنه من البشر — كما يقول الحسن — تجمع إلى دل الحديث وسحر الملاح ذكاء وفاداً ، وفها عميقاً للشعر الرفيع ، ورواية واسعة للأدب ، وقد خطرت ذات عشية أمام الحسن فأخذت عقله من مكانه ، ونقشت صورتها في مهجته ، فترك عصابته الماجنة ، وسار يتبعها في كل مكان يحمل به ، فإذا كان في البصرة عرس واجتمعت النساء ، خرج يتلصص صاحبته في اهتمام بالغ ، فإذا وقعت عينه عليها لم يطق أن يسارقها النظر بعض الوقت ، فيخنض رأسه حزيناً باكياً إلى الأرض ، وبهم في آفاق خياله فيعقد موازنة شعرية بين «جنان» وعروس الحفل ، وطبيسي أن يحكم بتفوق صاحبته في مضمار الحسن واللاحة ، ثم هو لا يكتم ذلك ، بل يملئه على الناس إذ يقول :

شهدت جلوة المروس جنان فاستمات بحبها النظارة
حسبوا المروس حين رأوها فإليها دون المروس الإشارة
وإذا قام في البصرة مأتم حزين وهرعت المذارى إليه
كعادته ترك الشاعر ما يملأ سمعه من الدواح والدويل ، وأخذ يتلصص صاحبته في موقفها الدامع ، ويسبح في آفاق تفكيره ، فلا يوازن بينها وبين عذراء ممن شاهدهن كما فعل يوم العرس ، بل يحمل الموازنة بينه وبين الميت الفقيد . ولاغرو فقد قتله الحب فهو جدير بأن تبكي عليه صاحبته كما تبكي الآن على الراحل النازح ، ثم هو يبلغها ذلك في شعر رقيق هادئ . اسمه إذ يقول .

بشار وخفة الحسن ، فقد خدع الأعمى قومه حين زعم أنه سيحيي نائبا إلى ربه وأنجه في أيام الحج إلى « زارة » وأقام بها مع أحد أصحابه ، ثم رجع مع المائدين من مكة في يوم واحد ، وجلس يتقبل الهاني ، ويقص الأحاديث المهمة عن زعم والطيم ، دون أن يفصح نفسه بكلمة واحدة ، حتى أطمأ صدقه الفناع ، فكشف أمره أمام الناس في أبيات فاضحة ^(١) ، أما أبو نواس فهو لا يريد أن يابس على القوم حقيقته ، فيستر بالورع والنسك ، ويدجل بالطواف والتلبية ، بل يذيع شعره الصريح على الناس في جراءة واستخفاف . ومعنى أهم الحسن بالجمهور ، وقد جانب المحجة ، وخلص المنار ١١

ولقد ظهرت براعته العجيبة في مكة حيث عرف فقاته في الحج طائفة من الزحام الحاشد ، فحمل يديه خطوة ، ويتمتعها في طوافها تمقيا يدعو إلى الغرابة والدهشة . ومن حيله المأكرة أنه التمس تقبلها للحجر الأسود قبله معها في وقت واحد ، وطاف بخذه على صفحة وجهها القائن ، وقد شاهده في هذا الوضع المريب محمد بن عمر الجاز فصاح به : « ويحك ! في هذا الوضع لا يزجرك زاجر ، ولا يمنعك خوف الله ، ولا يردك حياء من الناس ؟ » فقال له الحسن « يا أحمق ، وهل حسبت قطع المهامه والسباب إلا للذي حججت له ، وإليه قصدت » ، ثم شاد شيطانه الداعر أن يكشف حيلته للناس ، فقال هذه الأبيات وعاشقين التصف خداهما عند استلام الحجر الأسود فاشتغيا من غير أن يأتجا كأنما كانا على موعد لولا دفاع الناس إياهما لما استفاقا آخر المسند طائنا كلانا سارا وجهه مما يلي جانبه باليد نفعل بالمسجد ما لم يكن يفعله الأبرار بالمسجد ولقد كانت مشاعر الحسن - وهو الشاعر الطبوع - متيقظة منبهة في طوافه وتليته ، فلم يكذب يسمع الترانيم الشجية يمدح بها اللبون طوائف تتلاحق وتتتابع ، حتى حركت أوتار قلبه وأخذ النغم الساحر يسكب في سمعه نشوة راقصة

(١) قال سعد بن القمقاع صاحب بشار في رحلته :

ألم تروى وبشارا حججتا وكان الحج من خير التجار
خرجنا طالبا سفر بييد قال بنا الطارئين إلى زارة
نأب الناس قد حبوا أوبروا وأبنا موثرين من الحارة

يا فترا ابرزه ماتم يندب شجوا بين أتراب
يبكي فيندري اللرم من زرجس ويلطم الورد بمنساب
لا تبك ميتا حل في حفرة وابك قتيلا لك بالباب
وكانت « جنان » تمتد خاطئة أن أبانواس غير صادق في حبه لأنها تعرف عنه خلاصته وادعاه ، فكانت تسبه وتؤذيه وتطمئه في رجولته ، وتنال من كرامته كل مثال ، ولم نصف له غير حقبة يسيرة صرت في حياة الماشق مرور الطيف ، وترك وراها طوفانا جارفيا من السهد والدمع . وكان الله عز وجل قد أراد أن يؤدب الحسن بهذا الحب ، فقد خلع كبرياءه وغروره وترك وقاحته ومجره ، ثم هام كالشدوه على وجهه ، فإدا سأل عن جنان قوبل بما يكبره من الأنباء الصاعقة ، والأخبار الفاجعة وهو في كل دقيقة يتجلد ويتسبر . وقد بدق شعوره فيتصور سبابها المقتنع تكريما جليلا لشخصه ، لأنها تذكر اسمه لا بحالة ، وفي هذا غم كبير يساق إليه بلا حساب ، اسمه يقول :

أناي عنك سبك لي فسبي أليس جرى بفيك اسمي ، فحبي تشابهت الطائون عليك في ذا وعلم الغيب منه عند ربى وليت شعري لم يذكر اسم ربه في هذا الموضوع وقد نسيه قبل ذلك ؟ أليكون الحب قد جذبه قليلا إلى روضة الإيمان ، أم أنه الضعف البشري يتسلط على المرء فيلجئه إلى الاستماعة بره ، وإن تقطعت السبل ، واستبهم الطريق .

ولقد تطايرت الأنباء إلى الماشق المدنف أن « جنان » ستحج مع مولاها إلى مكة وذهب الحسن بتأكد من النبأ ويستوثق من مصادره المايمة ، فمرف أنه حق لا سرية فيه ، ومن ثم فقد أعد المدة ، وأعلن لأصحابه أنه سيخف إلى مكة في قافلة صاحبه . ولم يدهش البصريون لحج الشاعر ، فهم يعلمون أنه يقصد به غير وجه الله . ولقد كان يتتبع صاحبه في كل مكان له تترك بالبصرة ، فلا عليه إذا واصل مرافقته الدقيقة في مكة ، مهما كاهه ذلك من صحته وماله . والطاريف أنه لا يقبل أن يترك الناس في حيرة من حجه المفاجيء ، بل يكشف اللثام عن باطن سره إذ يقول :

ألم تر أنني أنفبت عمري بطلبها وطلبها عـ
فلما لم أجد سبيكا إليها يوصلني وأميئتي الأمور
حججت وقلت قد حججت جنان فيجهمني وإياها المسير
وأنت لو قارنت بينه وبين ابن برد لأدركك المعجب من ثبات

ففسى جنان بضع لحظات وسحره الجلم الحاشد يصيح ويستصرخ ،
قلبي مع الملبين تلبية هي في الواقع تغريدة عذبة صرح بها فنان
موهوب ، فهو يقول في رنة حلوة وتوقيع جميل :

إلهنا ما أعـمـلك ملك كل من ملك
لبيك قد لبـيت لك وكل من أهل لك
لبيك إن الحمد لك والملك لا شريك لك

والليل لما أن حلك والساجحات في الفلك
على مجارى المنسلك ماخاب عبد أملك
أنت له حيث سلك لولاك يا رب ملك

يا مخطئاً ما أغفلك عجل وبادر أجلك
واختم بخير عملك لبـيك إن المـز لك
والملك لا شريك لك والحمد والنعمة لك

ولله ما أبدع الحسن ! فقد كان شاعراً قبل أن يكون عاشقاً ؛
فهو يتأثر بالنظر الرائع فيبرز صورته الجميلة في مرآة شعره ، وإن
شفله بعض الوقت عن قائلته ، ولا يعقل أن ينقص هذا من حبه
في قليل أو كثير ، لأن الشاعر حساس مرهف يتأثر بكل ما يرى
ويسمع فيفتنى به في سهولة ويسر . ولئن كان المجنون قد طاف
مع الطائفتين ، وشاهد ما شاهده الحسن ، فلم يخض كصاحبه فيما
خاض فيه الملبون ، ومضى يتساءل عن ليلاه ويرسل زفراته
الشعرية المحرقة ، فلأن قيساً كان عاشقاً قبل أن يكون شاعراً ؛
فهو على النقيض من أبي نواس ، ولا تترب عليه إذا اشتغل
بليل عن كل شاغل ، ونسى موسيقى التلبية الفاتنة . ولبت شمرى
كيف يصيح إليها تائه مجنون !

وكثيراً ما يقف الأدباء أمام مقطوعة الحسن في التلبية
وما يشاكلها من أشعاره في الزهد والتوبة حائرين مرتبكين ،
حيث يستغربون صدور هذه التفات الصادقة من خليع مستهتر
بالشرع الخفيف . ولقد فات هؤلاء جميعاً أن لكل نفس مهما
غرقت في الخلاعة والفن سباحات خاطفة تصلها بالسوء فتندم
على ما فرطت في جنب الله ، وتنتج إلى الخالق مستغفرة باكية ،
فلا عجب إذا أدركت الشاعر هذه اللحظات الخاطفة فقال آياته
الزاهدة ، ولا سيما والحسن برغم مجونه الزائد متصل السبب بالآثار
الدنيوية والمواظب الروحية ؛ فقد صحب في صباه أئمة الدين ، وروى

الحديث النبوي ، حتى عده الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال من
رواته ، وإن هجونه ووصمه بما يستقطه ويرديه ، كل ذلك يدهوه
إلى الندم والحسرة على ما ارتكبه وبأتيه . وأعتقد أن شهرة الشاعر
بالخلاعة قد جنت عليه أكبر جناية ، فقد طاب له أن يتناقل
الناس نوادره وأشعاره وكلها طريف ممتع في بابه — وخيل إليه
أنه إذا انقطع عن غيه ، سكنت الناس عنه فلم يلهج بذكره ذا كره .
وساحبنا — كجميع الشعراء كلف بالشهرة مولع بالظهور ، بل
إنه صرح بذلك لأبي العتاهية حين لأمه في تهتكه . وإذا كان
الصيت الذائع في رأيه لا يكون بغير الخلاعة الزائدة ، فليطلبه
من طريقها الشائن ... وهذا ما كان !

وكيفما كان الحال ، فقد رجع الشاعر من مكة كما ذهب إليها ،
لم يتقرب إلى الله بتوبة ترفع عنه سيئاته ، وحسبه أن وجد في
البيت العتيق طريقاً يوصله إلى جنان بدل أن يوصله إلى الله !!
وليته ظفر بما يريد ، فإن صاحبتة ما زالت برغم جنونه بها تغفته
وتزدريه ، وعذرها في ذلك أنها لم تصدقه فيما يدعيه ، ولا جرم
فقد جنت عليه شهرته السالفة بالرد الحسن ، فحق لجنان الماكرة
أن تعذبه بالحربان .

وقد بئس الشاعر من صاحبتة في النهاية ، فأكب على الشراب
وحالف السكر محالفة تنسيه شواغل الوجد ولواعج الهيام ، ثم
ترك البصرة بما فيها من معارف وأصدقاء وأجبه إلى مدينة السلام ،
فراى البصرة لا تقاس بها في الترف والمجون ، فقد حوت من المتع
والملاذ ما يستخف الوقور ويصبي الحليم ، ففرق في الخلاعة إلى
أذنه ، ونهز بدلوه مع الفواة ، وبلغ ما يبلغ الرء بشبابه فإذا
مصاراة كل ذاك أنام !

عفا الله عن الحسن بن هاني . فقد حج إلى البيت العتيق حجاً
غير مبرور ، ونظم في الزهد والتوبة مالا يحسب إراء . آثامه
ومخازبه ، ولكنه خدع من كتب عنه من المستشرقين في دائرة
المعارف الإسلامية ، فزعم أنه تفك زهد ، وما كان الشاعر
طيلة حياته من الزاهدين ، ولكنه قال قول الزهاد ، وفعل أفعال
الجمان ، فكان كصاحبة جميل تذبح المصافير في قسوة ، وتدفع
عليها في رحمة .

فلا تنظري بائئ للدمع وانظري إلى الكف ماذا بالمصانير تصنع
(الكفر الجديد) محمد رجب اليرمسي